الفصل الأول

الإنسان البدائي

تسلسل زمني

منذ ٣ مليارات من الأعوام	أقدم دلائل الحياة
منذ ٣ ملايين من الأعوام	دخول البشرية مرحلة الانتقال ما بين الحيوان
قبل ٢.٨ مليونين من الأعوام	صنع الأدوات الأولى (إنسان أستراليا وأفريقيا
منذ ٢.٥ (؟) مليونين من	الأرض في حقبها الرابع (العصر الجليدي)
قبل ٤٠٠ ألف عام	استعمال النار (إنسان بكين وهنغاريا)
قبل ١٠٠ ألف عام	ظهور إنسان نياندرتال
قبل ٤٠ ألف عام	ظهور الإنسان العاقل مع أشباهه النموذجيين (بعض الأشكال البدائية الأقدم من إنسان نياندرتال).
قبل ٢٥ ألف إلى ١٠ آلاف عام ق.م	العصر الحجري المشذب (الباليوليتي) رسوم منقوشة - تماثيل فينوس صغيرة - رسوم جدارية
نحو ١٠ آلاف عام ق.م	نهاية العصر الجليدي في أوروبا الوسطى
نحو ٨٠٠٠ عام ق.م	العصر النيوليتي، عصر الحجر المصقول - المدن الأولى في الشرق الأدنى - تدجين الكلاب والماعز بدايات الزراعة في الشرق الأدنى.
من ٦٥٠٠ إلى ٥٥٠٠ عام ق.م	اختراع السيراميك في الشرق الأدنى - إحداث المدن الكبرى في جنوب آسيا الصغرى
نحو ٥٥٠٠ عام ق.م	بداية عصر النحاس (آسيا الصغرى وإيران).
نحو ٣٥٠٠ عام ق.م	بداية عصر البرونز، الكتابة الرمزية الأولى فيما بين النهرين.

نحـــــو ٣٠٠٠ عـــــام ق.م بداية التاريخ المدون في سومر ومصر، وبداية الحضارة الماجلانية في أوروبا الغربية (منيهير).

الإنسان البدائي

«التمتع بالحياة»
لم يبدأ تاريخ أخلاق الإنسان وعاداته في الفردوس

فآدم لم يكن الرجل الأول، وحواء لم تكن المرأة الأولى، ذلك أن العلوم الطبيعية تعلمنا اليوم أن الله لم يخلق الإنسان كما جاء في التوراة. فالإنسان بالنسبة للعالم لم يأت، بأي حال من الأحوال، تتويجاً للخلق: فهو وإن تحلى، بالطبع، بمزايا خاصة ومتفردة إلا أنه الحصيلة النهائية والراهنة لتطور طويل الأمد تم عبر العصور. بمقدورنا تمثيل هذا التطور بشجرة الأنساب، تلك الشجرة التي تمتد جذورها في الماضي البعيد إلى ما قبل مئات الملايين من السنين، حين ظهرت الحياة في المحيطات الشاسعة في الكائنات الوحيدة الخلايا التي تحتل مكانها، وهذا أمر شاذ وغريب، «ما بين النباتات والحيوان». وقد وَلَدت هذه الكائنات الأصلية بانشطارها والتحامها وانقسامها واتحادها أشكالاً أخرى جديدة. ومن خلال تحولات لا تنتهي للبنية الوراثية، تلك التحولات التي سمحت، على الدوام، بظهور تكيفات جديدة تتواءم وتبدلات العالم المحيط، تشكلت كل مظاهر الحياة على كوكبنا، فظهرت كل أنواع الحيوان والنبات، الأرضية منها والبحرية، في سلسلة متتالية من الأجيال، إذ كانت كل حلقة منها تنحدر من سابقتها لأن حب الحياة كان يدفع بها، وبقوة لا محيد عنها، نحو حياة جديدة أبداً، وقد أدت إحدى هذه التغيرات التي طرأت على شجرة أنساب الحياة إلى ظهور الحيوانات الفقرية مع الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات. وإلى جماعة الثدييات ينتسب الإنسان المنحدر من القرد على نحو غير مباشر: الإنسان العاقل الذي بدد غموض أصله[1]. ذلك هو رأي علماء الحياة الذين يرون في مبدأ النشوء والارتقاء المتواصل في كل كائن عقيدة وقانوناً. لكن الإنسان في تطوره قد أخذ عن الحيوانات أسلافه حب الحياة والتمتع بالإنجاب والاستمرار فطور ذلك وارتقى به.

يتبنى مبدأ التطور الآن كل العلماء، ومن بينهم علماء اللاهوت، حتى أن رجل الدين المثقف لا يرفض نظرية التطور المتواصل لكل ما هو كائن، على اعتبار أنها نظرية منتهكة للحرمات ومدنسة للمقدسات، بل هو، على العكس من ذلك، لا يرى

١- يطلعنا المؤلف في هذه الفقرة «بتجرد» على رأي علماء الحياة المنتمين إلى نظرية داروين في النشوء والارتقاء - المترجم.

فيها ما يناقض الدين والإيمان بالله الكلي القدرة والوجود، خالق السموات والأرض وواهب العالمين والإنسان، ضمناً، «الكينونة» و «الصيرورة».

لما يتجاوز بعد عمر نظرية التطور، بوصفها مذهباً علمياً، قرناً من الزمان. كما أن علم تاريخ الأخلاق الأكثر حداثة والذي يطبق على الإنسان دراسته لسلوك الحيوان لم يكتف، وعلماء الحيوان، بالتثبت من أن الفروق التشريحية بين الإنسان وأجيال الأسلاف المشتركة في مملكة الحيوان هي فروق طفيفة ليس لها كبير أهمية. فقد شرع علماء تاريخ الأخلاق بدراسة سلوك الحيوان والإنسان دراسة أساسها الملاحظة الدقيقة والمراقبة الاختبارية. وعليه فقد غدا بمقدورهم تقديم عدد هائل من الأمثلة والأدلة التي تعزز وتؤكد أن الغرائز الأساسية واحدة عند كل من الإنسان والحيوان: وكما هو الحال عند الحيوان فإن وجود الإنسان يعتمد على غريزة البقاء وأن رغبته في الحياة ترتكز على الغزيرة الجنسية. وكما هو الحال عند الإنسان فإن العديد من أنواع الفقريات والثدييات تؤلف عائلات وجماعات وتحدث مستويات اجتماعية داخل هذه الجماعات وتحيل العلاقات الجنسية بين الذكر والأنثى إلى «شعائر وطقوس»، حتى إن ضروباً من السلوك النمطية، المتكررة بين الجنسين بطريقة مقبولة تماماً وتبعاً لمخطط مرسوم بدقة، تسبق كل اتحاد جنسي.

إن لدى كل من الحيوان والإنسان أفعالاً تتكرر بانتظام أو تتعاقب وفق مخطط ثابت وذلك تبعاً لدرجة تطورهم وحساسية جملتهم العصبية وأعضائهم الخاضعة لتأثير الهرمونات. والأمر هنا يتعلق ببعض أنماط السلوك وبعض عادات الحياة والأعراف التي يمكن أن نطلق عليها، بثقة «الأخلاق». حتى أن علم تاريخ الأخلاق قد استمد تسميته من الكلمة اللاتينية «Ethos» التي تعني: العادة، العرف، الممارسات الخ...

ويمكن لهذه الأخلاق أن تتغاير وتتعدد عند النوع الواحد من أنواع الحيوان، كما أن أخلاق الإنسان، بالطريقة ذاتها، تتغاير وتتنوع تبعاً للمناطق التي يعيش فيها، ووفقاً للشروط الحياتية. وقد أظهر علماء تاريخ الأخلاق، من خلال أبحاثهم، أن الغريزة، ذلك الميل الفطري، المكتسبة بالوراثة والخاضعة لتحريضات الجملة العصبية وتأثير الهرمونات التي تدفع بالكائن إلى أفعال جوهرية بالنسبة للحياة والبقاء، هي صاحبة السيادة التي توجه جميع الفقريات والثدييات. والإنسان بطبعه خاضع إلى قوانين «الأخلاق» الكبرى للطبيعة، وهي قوانين محتومة تتحكم بها الغريزة، فالإنسان بالنسبة لعلماء الأخلاق «المتخصصين بالسلوك» قد اكتسب أخلاقه الأساسية من الحيوانات ومعها قبل أن يتغاير والقرد، أقرب أقربائه، بفضل وضعية المشي واقفاً وحركية رأسه الخاصة واستخدامه ليديه ونمو مخه وكماله،

وخصوصاً بفضل دماغه، أي قبل أن يبدأ في التفكير، فبقدر ما اتسع صندوق جمجمة الإنسان، ورقّت عظام فَكّيه وقويت عضلات ساقيه وتنامت مهارة يديه بقدر ما تطورت عبر آلاف السنين ملكاته العضلية الخاصة به، تلك الملكات التي أطلق عليها هؤلاء الباحثون اسم «الروح» «الفكر» (وحول هذه النقطة يجمع ذوو الاختصاص في التطور والسلوك)، كما ربطوا تطور الوعي المتعاظم، عند «الرئيسات»[1] حصراً، بهذا الاختلاف المتعاظم للجملة العصبية المركزية وبنمو المخ. إن علم السلوك المقارن يجتهد في إثبات أن الثدييات العليا، خصوصاً، تمتلك على الأقل مبادئ الروح «الفكر» ودرجتها الأولية.

ترى ما هي الظروف وما هي التأثيرات الخارجية التي استطاعت دفع الإنسان الأول «للتفكير» وحملته بقوة على استخدام أدواته وعدده، وعلمته تحويل ما يصدر عن حلقه من أصوات إلى لغة يتكلمها، وأن يُكيّف كل سلوك غريزي مع فعل مدرك وواع؟

لم تستطع الأبحاث البيولوجية، حتى في أيامنا هذه، تقديم الإجابة الوافية على هذا السؤال، إلا أن هناك شيئاً مؤكداً في جميع الحالات: إن السيرورة (عملية التطور والتقدم) قد بدأت في هذه المرحلة من مراحل التطور التي ندعوها بـ «مرحلة الانتقال ما بين الحيوان والإنسان» ففي فترة من الفترات المحددة لم تملك البشريات الأولى القدرة على الجماع والإنجاب بالاتصال مع أسلافها الشبيهة بالإنسان، فطرأت تبدلات جوهرية في الأساس الوراثي نتج عنها تحولات في مركب نطفة الذكر وفي طبيعة البيضة المؤنثة القابلة للتلقيح، أضف إلى ذلك، ما طرأ من تحولات في السلوك، لا تقل عنها أهمية، مما حدد الإنجاب عند نوع البشريات التي انفصلت عن «أسلافها»، فسلكت دربها الخاص بها. إن عنصراً ذا طابع تشريحي قد لعب دوراً حاسماً: تغير وضع الأعضاء الجنسية الذي حدث على الأرجح الغالب بعد الوقفة العمودية. إن أنثى «الرئيسات» تتميز عن أنثى القرد بواقع أنه لا تقوم قط بالعمل الجنسي «على نحو أعمى» إلى حد ما، إذ أصبح باستطاعتها، من الآن فصاعداً، أن تشعر باللذة وأن تتمتع «بالمشاهدة»: فلم تعد المرأة - مثلها في ذلك مثل الرجل - «عمياء» تخضع «آلياً» للغريزة الجنسية.

حاول، في أيامنا هذه، عدد من علماء الحياة ومتخصصي علم الجنس وعلماء النفس، وبنجاح مؤكد، ملاحظة السلوك الجنسي ومقارنته وتحليله عند كل من الإنسان والحيوان، وهكذا فقد أصبح بالإمكان البرهنة على أن الكائنات الإنسانية لا تخضع

١- الرئيسات أو المقدمات «prehominin» اسم الكائنات الشبيهة بالإنسان والتي سبقت الإنسان «الفعلي».

للهرمونات الجنسية خضوع بقية الحيوانات اللّبونة حتى أكثرها تطوراً. إن قشرة الدماغ عند الإنسان قادرة على الاضطلاع بتوجيه سلوكه العام وخصوصاً سلوكه الجنسي.

إن المداعبة العشقيّة قبل العملية الجنسية هي عند الإنسان أكثر ثراء وتنوعاً وابتكاراً منها عند الحيوان بمداعباته وحركات تقربه من أنثاه، فقد ابتكر الإنسان مختلف الأوضاع الجنسية ليزيد في متعته الجسدية، واستفاد، ليس فقط، من قدرة المرأة على التمدد على ظهرها بعد أن استقامت قامتها - إذ يستحيل هذا الأمر على أنثى الحيوان - ولكنه استطاع أن يتبنى أيضاً الوضع الطبيعي لأسلافه، باستناده على أطرافه الأربعة، دون تعداد للأوضاع الأخرى التي ابتكرها، وهي لا تحصى.

يبرز من خلال المقارنة بين الحياة الجنسية للحيوان وحياة الإنسان الجنسية اختلاف جوهري: لا يستطيع ذكر الحيوان، البتة، أن يُكره أنثاه على السفاد، وبناء على ذلك، فإن لها الحرية الكاملة في الرفض أو القبول، ولهذا السبب يلجأ الذكر إلى خطب ود الشريكة التي اختارها واختارته بالغزل والتودد، وإلى هذا الواقع تعود المجاملات الفطرية والغريزية للرجال حيال النساء، وهي مجاملات ورثناها عن أسلافنا. بمقدور كل رجل أن يغتصب المرأة التي يشتهي سواء بشَل وسائل دفاعها أو بضربها أو بتهديدها وترويعها وهكذا يستطيع الرجل بتحطيمه مقاومة المرأة وشل قوتها أن يصبح السيد الآمر.

وعلى أثر التربية وما يتمتع به الإنسان من سجايا واستعدادات طبيعية، غدا هذا السلوك مستهجناً وغير ممكن عند الأغلبية العظمى من الرجال. ومن الممكن أن نستشف في أقدم قواعد الإنسان الخلقية العقاب الصارم ينزل بكل من يجرؤ على انتهاك العادات التي يراعيها عالم الحيوان ويخضع لها.

إن مرحلة التطور التي يطلق عليها الطبيعيون اسم «الفترة الانتقالية ما بين الحيوان والإنسان» والتي، بدءاً منها، لم يقترن الكائن الإنساني إلا بأمثاله، قد وردت بحذر في بعض تأويلات التوراة النقدية.. وعليه فإن هذه التأويلات تنطلق من فكرة إنه إذا كان العهد القديم كله لم يصف صراحة مراحل التطور في الكون فإنه، مع ذلك، قد تضمنها جميعاً تحت أشكال من الصور والرموز. ويوضح هؤلاء أنه بالإمكان، إن صح القول، أن نكتشف، فيما بين سطور الفصل الثاني من التكوين العصر والظروف التي لم تستطع فيها الرئيسات من القرود أن تتلاقى ثانية لكي تتزاوج وتنجب، على الرغم من عظيم شبهها بالإنسان.

إن مشهد خلق الإنسان مألوف عند جميع أولئك الذين يعرفون العهد القديم. ففي جنة عدن حيث كان الإنسان الأول يتمتع بكامل ما في الطبيعة الفردوسية وفي محيط وارف زاهر بالنبات وحيث كانت «جميع أنواع الحيوان فوق الأرض وكل أنواع الطير في السماء»، وكان الإنسان يتميز عن الحيوانات بمشيته على القدمين وقدرته على النطق، وأعطي كل الخليقة باستثناء واحد منها: فقد حظر عليه أن يأكل من «شجرة معرفة الخير والشر»، كانت الجنة توفر له كل شيء.

ومع ذلك فقد كان الإنسان يفتقد شيئاً ما: إذ كان وحيداً. حينئذ قال الرب: «لا يحسن أن يكون الإنسان وحده، فلأصنعن له عوناً يناسبه»، ولم يقرر الإله ذلك إلا بعد أن زود الإنسان بكل أنواع الحيوانات الحية. «وأما الإنسان فلم يجد لنفسه عوناً يناسبه».

من ذلك نرى أن الإنسان الأول قد ألحق به المرأة الأولى باعتبارها عوناً له. ولكن في أي شيء كان لا بد للمرأة أن تكون عوناً للرجل؟ وبأيّ أعمال؟، والرب لم يحكم عليه بعد بأن «يأكل خبزه بمرق جبينه» بل كان يستطيع، على العكس من ذلك، أن يأكل وفق هواه من كل أشجار الجنة باستثناء «شجرة معرفة الخير والشر» ترى هل يشير هذا المقطع من العهد القديم إلى أن الإنسان الذي خلق مع كافة غرائزه الفطرية لم يصبح كائناً إنسانياً حقاً إلا بعد أن أصبح بمقدوره إشباع رغبته «الحيوانية» باتصاله بامرأة من نوعه بالذات؟ أم أن هذا التمهيد للمأساة المثقلة بالنتائج والعبر لا بد أنه يعني أن القوانين الأخلاقية السائدة في مرحلة تدوين العهد القديم كانت تدين كل فعل جنسي مع الحيوانات، باعتباره فعلاً شائناً منافياً للطبيعة، فرأت هذه القوانين في وجود عون للرجل أمراً يحسن ويطيب عند الرب الإله؟ لعل هذه القصة المنسجمة «ومفاهيم ذلك العصر» تريد أن تحدد منذ البدء المكانة الاجتماعية للمرأة التي هي «عون» للرجل أي هي كائن إنساني من الدرجة الثانية ملحق به بل تابع خاضع للرجل؟ إن الإجابة على هذا الفرض الأخير بالإيجاب يعني أن مكانة المرأة في أصغر تجمع إنساني، أي في الحياة الحميمة لأول زوجين، قد حددها العهد القديم مع أخذه بالاعتبار، أولاً وأخيراً، الفروق بين الجنسين. وعليه فقد كان من المحظر على أول زوجين أن يدركا الفارق الجنسي بينهما أو أن «يتعارفا» «يتعاشرا» بالتبادل على الرغم من حتمية أن يصيرا «جسداً واحداً».

إننا لم نلحظ في أية قصة أخرى تدور حول الخلق ما نلاحظه في التوراة، تسمية للكائنات الإنسانية الأولى بأسمائها، ففي جميع الديانات الأخرى لم نجد تعداداً للبشر الذين خلقتهم الآلهة وأقامتهم في الأرض، كما أنها لم تقل لنا إن كانت البشرية تعود إلى رجل واحد وإلى امرأة واحدة أو أنها كانت تضم، بخلاف ذلك، العديد من الأزواج. إذ بقي هذا الأمر مبهماً[1]. لكننا نعرف فقط أنهم قد خلقوا، ونعرف غالباً ظروف خلقهم، وبالمقابل فقد كان لآدم وحواء مصير شخصي لا بد أن يصلح مثالاً وعبرة للإنسانية وأن يمثل تحذيراً لها، أنهما شخصيتان مأساويتان، فقد أصبحا مذنبين لأنهما ارتكبا وأنجزا أول عمل من تلقاء ذاتهما، عمل كان لا بد من أن يقوما به بالضرورة ما دام مقدراً عليهما أن يصبحا «جسداً واحداً». إن عدم احترامهما لقانون، لم يدركا عمق مغزاه، أوجب عليهما عقاباً لا بد من أن تكون له قيمته بوصفة عبرة لجميع البشر الذين لا يمتثلون لأحكام الرب وأوامره. ومع آدم وحواء ظهر في

١- على عكس ما يورد مؤلف الكتاب هنا، فإن أكثر من نص بابلي قديم يشير إلى الزوجين البشريين الأوليين. راجع بهذا الخصوص كتاب مغامرة العقل الأولى لمؤلفه فراس سواح فصل التكوين البابلي - المترجم.

العالم مفهوم «خطيئة الجسد» واستمر عبر الزمن مقيماً في ضمير كل البشر الذين تربوا وترعرعوا على تقاليد التوراة.

لم يكن الرجل هو البادئ في اقتراف الخطيئة، بل المرأة هي التي أغوته. لقد كانت المحرِّض. فبتشجيع منها فقد الرجل براءته واضطره ذلك، في الوقت نفسه، إلى التخلي عن نعيم إقامته ومستراح بطالته وعما كانت عليه الحال في فردوسه. لقد سحرته فتوجب عليه أن يحتمل أعباء المسؤولية ليس عنه فقط بل عنها أيضاً. وفي مقابل ذلك بات على حواء أن تذعن لخدمته وتخضع لرغباته في أي وقت يشاء.

هذه القصة تنسجم «ومفاهيم ذاك العصر». إن الشعب - الذي كرس له العهد القديم وجمع من أجله جملة بعد جملة ليضع على أساسه روحانياته ويدعم بواسطته أخلاقياته - كان، في أصله، شعباً رعوياً ممعن التمسك بأعراف الحياة الرعوية وعاداتها وتقاليدها، على الرغم من تنقله المستمر بحثاً عن شروط حياتية أفضل، وخضوعه في مراحل حياته للنفي أو الأسر.

إنما الرجل في الحياة البدوية كان أبداً سيد أسرته الأعلى. ولكي يصبح من الممكن المستطاع تقديم علو المقام هذا وكأنه أمر فطري، ولقطع دابر كل جدل يثار حول ذلك، حافظ الرجال على تفوقهم، وصانوه بشرائع دينية تؤكد دونما منازع حقوقهم في الحكم والسيطرة على أسرهم.

لكن الأمر لم يكن ليتم دائماً وفي كل مكان على هذا المنوال. ففي أزمان ما قبل التاريخ وارتقاء البشرية نجد حضارات تمنح الأمهات - أي النساء - مكانة استثنائية، وخصوصاً أكبر الأمهات سناً في القبيلة، فقد كان لصوتهن أهمية كبرى في اختيار رئيس العشيرة الأسروية وفي المساهمة بجميع القرارات المتعلقة بالأحداث السعيدة، أو الأليمة للجماعة. وكانت تبارك هذه «الأمومية» كافة السلوكيات التي يمكن تخيلها عن أقوام الهلال الخصيب، ومنها «البلاد الواقعة بين النهرين» التي انبثق عنها، كما تقول التوراة، أسلاف «بني إسرائيل». وقد أنشأ كهنة السومريين، أقدم شعوب الأرض، أسطورة عن الخلق كيلا ينسى الرجال ما يمكن أن يجدوه عند النساء في أحسن الحالات وأفضلها، ولكي تجد النساء في المعتقدات الدينية أيضاً سبباً للمكانة التي مُنحنها من الآلهة. ومن ثم فقد تتناول الكهنة البابليون هذه الأسطورة وتوسعوا فيها وأكملوها وانتقلت عنهم إلى اليهود في زمن الأسر البابلي لهم.

في «ألواح الخلق السبعة» التي هي اليوم من أقدم الكتابات الدينية في منطقة الهلال الخصيب، نجد أنه كانت توجد في أصل العالم كائنات ذات قامات خرافية. وقد دل عليها بأسمائها لتصبح قريبة من مخيلة المؤمنين - على اعتبار أنها أشخاص - مما يعزز، بالتالي، وجودها الحقيقي، وكما أن كل حي لابد من أن يكون حصيلة اتحاد ما فالعالم بدوره لا بد أن يكون، هو أيضاً، ثمرة اقتران وتزاوج وهكذا فإن تيامات (تعامة) أو الجوهر الأول كان الأم البدء أو الأصل في حين أن آبسو، المادة، كان الأب الأصل أيضاً. ومن اتحادهما ولد ممو... وبواسطته لم يكن كلٌ من تيامات وآبسو إلا كتلة لا شكل لها، العماء، الذي كان «الظلمات والمياه».

عندما ظهر النور أنجب (ممو) الآلهة والشياطين (المردة) الذين شرعوا بتشكيل عالم لا شكل له، لسخطهم على العماء الهادئ الساكن السعيد، فعكّروا صفو تيامات بصخبهم الأبدي.. فعزم آبسو على استخدام القوة ضد هؤلاء المشاغبين، لكن الأم لم ترغب في فناء الآلهة والشياطين. وفي الوقت ذاته عزم ممو على تنفيذ ما انتواه آبسو. وعلى الرغم من السرية التي أحاط بها استعداداته علم الآلهة والشياطين بمخطط الإبادة. اغرق إيا (إله الحكمة) آبسو في سبات عميق، لا عودة منه، وبترت أعضاء ممو الذكرية فأصبح محروماً من النور: العماء ولم يعد له وجود قط. إلا أن تيامات أرادت أن تثأر لموت آبسو وخصاء ممو فاتحدت بكنجو إله الشر فأنجبا معاً نجوم السماء الشبحية التي حكمها كنجو بصفته «حارس ألواح القدر» فقالت له تيامات: «فليتم كل ما تنطق به شفتاك».

لم يجرؤ أي من الآلهة على الوقوف في وجه تيامات وكنجو. باستثناء مردوخ، إله بابل فيما بعد، الذي نادى بقدرته على التمرد والتحدي، واشترط أن تلتزم بقية الآلهة بالاعتراف به إلهاً مطلقاً إن هو استطاع أن يجرد تيامات من قدرتها على الضرر والأذية، وأثبت مردوخ تفوق سلطانه.. كان يختفي تارة ويعود للظهور تارة أخرى.. كانت ذراعاه البرق والرياح، وبها تغلب على تيامات وقسمها نصفين كما الصدفة، من نصفها الأول صنع السماء ووضع فيها الشمس والقمر وكوكبة النجوم، وسن للكواكب والنجوم قوانين تلتزم بها ولا تحيد عنها، ومن نصفها الثاني خلق الأرض.

وبقيت تيامات بعد تقسيمها، حية في أذهان المؤمنين في صورة وحش ذي مظهر مروع شنيع، مزود بقرون وأجنحة ومخالب، وأصبحت العدو الأمثل القادر على كافة التحولات، ومن أكثر هذه التحولات خطراً هو التحول الذي تتخذ فيه مظهر أفعى منتصبة ومتصلبة مقلدة، شكلاً ووضعاً، عضو الذكورة في حالة الانتصاب إذ أن نظرة واحدة إليه تدفع بالإنسان إلى الرذيلة والتهتك. إن الأم الأصل قد سقطت، بعد أن جردت من قدرتها وسلطانها، إلى مستوى غاوية مضللة وشريرة منحرفة، لقد أصبحت امرأة منذورة للدعارة. تتظاهر بالبراءة وتتخفى على شكل أفعى تتربص بضحيتها خلف شجرة الحياة «التي تحمل ثمار الخير والشر» السماوية الأرضية. وبقدر ما كانت تيامات خليقة بالإغواء دون سائر الكائنات الحية بقد ما كانت تحتاج إلى إرواء نزعة الشر فيها، فأخذ الملل يدب فيها كما دب في بقية الآلهة الذين أتوا مردوخ يرفعون إليه شكواهم، إذ لم يوجد بعد - حسب ما جاء في «ألواح الخلق السبعة» - أي متعبد يقدم لهم الأضحيات والقرابين. عند ذلك قرر مردوخ، وكان في اتخاذه مثل هذا القرار خطة «ماكرة»: «سأخلق بني البشر» فإنهم سيكونون عوناً ونفعاً للآلهة وراحة لهم. فقتل مردوخ، بناء على نصيحة إيا (إله الحكمة) كنجو الشرير وبواسطة من دمه ومن «عظم الأرض خلق بني البشر»، الذي تسري في عروقهم دماء كنجو الشيطانية التي تنفث فيهم الرغبة في الشر وتزرع في النساء أيضاً الرغبة الشبقة الفطرية.

إن الأم الأصلية الشريرة تيامات المتحولة إلى أفعى والموصوفة في «ألواح الخلق السبعة» بالغاوية المضللة التي لا يمكن صلاحها هي تلك الأفعى التي دفعت المرأة الأولى في العهد القديم إلى إغواء الرجل الأول. فقد مجدت الأفعى وامتدحت بكثير من الإقناع ما في الثمرة المحرمة من متعة ولذة مما حمل المرأة الجاهلة الطائشة على الرضوخ.

كان لا بد للخطيئة الإنسانية تماماً - التي اقترفتها حواء - أن تكون المثال الأول للغواية والضلال. جاء في التوراة عن أول زوجين من البشر: إنهما كانا عريانين، الرجل وامرأته، وهما لا يخجلان. ولم يصبحا كذلك إلا بعد أن أكلا، على الرغم من النهي، من ثمرة تلك الشجرة التي قالت عنها الأفعى الماكرة إنها «شجرة شهية لذيذة» وغدا الرجل والمرأة بسببها نافذي البصيرة ومذنبين . وبواسطة هذا الخجل، ذلك الشعور الذي كان يجهله حتى الآن كل من آدم وحواء، أوجدوا أول درجة «زي» أقرتها التوراة، الغاية منها ستر الأعضاء الجنسية كيلا تدفعهما رؤيتها إلى تكرار العمل المحرم.

ووفقاً لكافة تأويلات العهد القديم اللاهوتية والفلسفية فإن واقعة تذوق الثمرة المشتهاة رمز لقيام الرجل والمرأة بالعملية الجنسية، وقد مارساها بوعي وبقصد الحصول على المتعة. وبما أن الرب قد حظر على الإنسان تذوق الثمرة المشتهاة فإن الاتحاد الجسدي لآدم وحواء قد أدانته العقائد القائمة على العهد القديم: إنه «الخطيئة الأصلية» و «الزلة»، فالمرأة وقد دفعتها الأفعى هي الساقطة الأولى، أما الرجل فهو ضحية إغراء المرأة وإغوائها[1].

إن للموروث الديني نفوذاً، ليس فقطن على مكانة المرأة الاجتماعية بل وعلى السلوك الأخلاقي لكلا الجنسين أحدهما تجاه الآخر: إن حذر الجنس المذكر واحتراسه من الجنس المؤنث تعبير عن خشية الرجل من حساسيته الخاصة ومن عواقب الإغواء، والمرأة من جهتها تشعر بضرورة إغواء الرجل دونما أي تردد باللجوء إلى كافة الوسائل التي يمكن تخيلها، بغية جذبه ودفعه إلى ممارسة العمل الجنسي. لكنها تريد أن تظهر بمظهر المغرر بها - إن لم يكن من الرجل فعلى أقل تقدير من الأفعى التي تمثل، ليس فقط في «مفاهيم ذاك العصر» بل أيضاً في رأي ذوي الاختصاص بعلم الإنسان في وقتنا الراهن، رمزاً قضيبياً، صورة لعضو الذكورة في حالة انتصابه.

وعليه فقد وصفت أول عملية جنسية بأنها مخالفة لأمر الإله فهي بالتالي خطيئة لا تغتفر. وقد ساد هذا المفهوم ورجحت كفته عبر الأجيال حتى أيامنا هذه ذلك

١- لقد كان لخطيئة حواء، كما جاءت في التوراة، اثر كبير في ذاكرة بني البشر، يشهد على ذلك ما دونه رجال الدين والمفكرون والفلاسفة والأدباء، وما ألفه الموسيقيون ورسمه الفنانون - المترجم.

أن الخطيئة الأصلية قد ارتبطت مباشرة، في العهد القديم، بمعرفة الخير والشر وأدينت قبل أية خطيئة أخرى، ولم تظهر الوصية: «لا تقتل» إلا بعد «الزلة» وطرد آدم وحواء من الفردوس ومقتل هابيل على يد أخيه قابيل.

ويرى اللاهوتيون في عملية خلق الرجل الأول الذي صنعه الرب من حفنة من تراب ونفخ في أنفه نسمة الحياة تمثيلاً رمزياً: إن على هذه الصورة أن تجعل المؤمنين يدركون أن الرجل، المخلوق المختار، قد تلقى روحه من الله، وبناء على ذلك فقد غدا «آدم» الذي يعني في لغة التوراة «الرجل» أي الرجل الذي حباه الله بقدرات روحانية، «الإنسان العاقل» «الذكي» «الذي منح قدرة السيادة على الأسماك في البحر والطير في السماء وعلى جميع الحيوانات التي تدب على الأرض».

أما فيما يتعلق بـ «تشكيل» المرأة الأولى من أضلاع الرجل، فإن علم اللاهوت لا يعرض علينا أي تفسير رمزي. ففي قصة التوراة نقرأ ما يلي: «فأوقع الرب الإله على الرجل سباتاً عميقاً فنام. فأخذ إحدى أضلاعه وسد مكانها بلحم، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من الإنسان امرأة فأتى بها الإنسان. «إن المرأة الأولى التي أطلق عليها آدم، بعد السقوط، اسم حواء» لتكون أم جميع الأحياء»، لم ينجبها أب ولم تلدها أم بل كانت حصيلة «فصل». ترى ما هو المغزى الرمزي الذي يتضمنه «صنع» المرأة من ضلع الرجل إن رأينا في هذه العملية علاقة مع «مفاهيم ذاك العصر»؟

هل القصة التوراتية مبنية على احتمال، أو بالأحرى على يقين أن البذيرة الحية، التي تحمل بها المرأة بالعملية الجنسية بعد قذف المني المذكر في رحم الأم، تحتوي على عناصر مذكرة ومؤنثة معاً، وأن الجنس الذي ينتمي إليه الطفل بعد الولادة لا يتحدد إلا من خلال فترة نموه في الرحم؟ وعليه فهل هم على علم أن كل كائن إنساني، رجلاً كان أو امرأة، يمتلك، في تكوينه، من الجنس الآخر صفات طبيعية غير متطورة (جسدية ونفسية)؟

وهكذا فقد تبين من خلال التنقيبات الأثرية أن فكرة الكائن الإنساني الثنائي الجنس كانت معروفة عند السومريين. وبخصوص هذه الظاهرة البيولوجية، التي أثرت في السلوك الأخلاقي وفي القواعد الناظمة للحياة واحترام هذه القواعد حتى وقتنا الراهن - ليس فقط خارج وجهة النظر الجنسية - نجد وصفاً لأنواع «شاذة» من المخلوقات ذات صفات إنسانية كانت موجودة قبل أن يخلق الإنسان.

إن هذه القصة التي تعود إلى أزمان ما قبل التوراة مدينون بها إلى كاهن بابلي هو بيروسوس الذي نشر باللغة اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد مؤلفات تاريخية وتأملات في فترة ما قبل التاريخ. إن بيروسوس هذا بعد تقصيه للتاريخ السومري القديم وأحداثه، قد اكتشف أساطير مغرقة في قدمها، وصادف موروثات مثبتة خطياً تتحدث عن «كائنات نادرة شاذة وذات أشكال غريبة» عاشت قبل أن يخلق بنو البشر، كما جاء في «ألواح الخلق السبعة» ويعرض بيروسوس علينا ما يلي: «... وقد ظهر رجال مزودون بجناحين.. كان لبعضهم أربعة أجنحة ووجهان وللبعض الآخر جسد واحد ورأسان، رأس امرأة ورأس رجل، وأعضاء جنسية ثنائية مذكرة

ومؤنثة في آن معاً.. وهناك أيضاً رجال آخرون لهم قوائم وقرون ماعز أحياناً وحوافر خيل أحياناً أخرى.. بعضهم على شكل إنسان في مقدمته، وعلى شكل حصان في مؤخرته، وكذلك كنت ترى ثيراناً برؤوس إنسانياً وكلاباً بأربعة أجساد، لمؤخرتها ذيول أسماك.. كما يوجد أسماك وزواحف وأفاعٍ ومخلوقات أخرى غريبة لها أشكال متبادلة فيما بينها»..

هذه الكائنات الهجينة والمخنثة في أزمان ما قبل التاريخ التي ذكرها بيروسوس كانت، على الأرجح، ثمرة مخيلة أو مبالغات تجاوزت الحدود في وصفها لمسوخ تثير العجب، من المحتمل أن يكون لها وجود حقيقي، ومع ذلك فإن وجود مثل هذه المسوخ في زمن بيروسوس لا يمكن أن يكون مثيراً للشك فقد حاكاها كهنة بابل واليونان والفنانون في الكلم وفي أعمالهم الفنية بوصفها أشكالاً أسطورية إن لم تكن أسلافاً لبني الإنسان.

كانت جميع هذه «الكائنات الإنسانية العجيبة والغريبة مزودة بجنس ثنائي، مذكر ومؤنث في الآن نفسه»، إذ يحدثنا بيروسوس عنها باعتدال وكأنه ينقل إلينا شائعة استمع إليها، فهو لم يتعرف عليها من طريق الكتابات الموروثة فحسب بل وبواسطة مشاهداته العيانية أيضاً: في الغابات المقدسة المحيطة بمعابد بابل واليونان وهياكلها كانت تعرض على الملأ تماثيل الخِنات Hermaphrodites وأشكال الخَنَاثى Androgynes المنحوتة بمهارة والمزودة بصفات جسدية لكلا الجنسين المذكر والمؤنث. وكانت هذه الكائنات تعد مخلوقات كاملة تامة. وكانت هذه التماثيل في عصر الإغريق هذا، العصر الذي لم تك فيه المتعة الجنسية تعرف العيب والحرام بعد، تجسد الرغبة (التي تدركها الأغلبية العظمى من الإغريق وبدرجات قد تزيد أو تنقص) في تمتع الرجال والنساء بالعملية الجنسية على حد سواء.

ليس ثمة شك في أن جنسية الكائن الإنساني الثنائية ومبدأ انفصاله إلى رجل وامرأة لم يكن بالأمر الغريب والبعيد عن «مفاهيم ذاك العصر» الذي دُوِّن فيه العهد القديم. إن لم تكن هذه المفاهيم قد تأثرت بمعرفة تطور الأجنة الجنسي في رحم الأم فمن الممكن أنها قد تأثرت، على أقل تقدير، بمرأى تماثيل الخِناث. يمكن أن نستنتج من ذلك أن هذه المعرفة للخنوثة قد عَبّرت رمزياً قصة «صنع» المرأة من ضلع الرجل، أضف إلى ذلك أن لهذه الرمزية مقصداً أخلاقياً: كان لابد من تثبيت وترسيخ «الثنائية» الفطرية لكل من الرجل والمرأة بواسطة الرمز فعلى كل مؤمن أن يحس في ذاته ما عبر عنه الرجل الأول عند رؤيته المرأة الأولى: «هذه المرأة هي عظم من عظامي ولحم من لحمي هذه تسمى امرأة (في اللاتينية VIRAGO) لأنها من امرئ (في اللاتينية VIR) أخذت».

كان انتماء احدهما للأخر (الرجل والمرأة يكمل أحدهما الأخر وبالتبادل) المبدأ الأساسي في كل رابطة زوجية استجابة لمفاهيم ذلك العصر الأخلاقية. نقرأ في العهد القديم: «ولذلك سيترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً». وهكذا نرى أن الاتحاد الجسدي للرجل والمرأة أمر يطيب للرب الإله. ولكن لابد من أن

نتساءل: هل كانت تلك هي حال الاتحاد الجسدي حقاً في حين أن الله قد طرد آدم وحواء من الفردوس بعد «الزلة»؟

ما كان ممنوعاً في جنة عدن كان مسموحاً به خارجها. وبالفعل فان آدم لم يستطع أن يصير أباً للإنسانية جمعاء، إلا لأنه قد «عرف» حصراً، امرأته حواء. إن التلمود، الذي أبدى رأيه بتسامح حكيم في الغرائز الدفينة للطبيعة الإنسانية وفي رغباتها غير المباح بها، (في نطاق أن القوانين الأخلاقية لم تحظرها قطعياً) قد غفر للأوائل «الخطيئة الأصلية» مبرراً ذلك بأن لا وجود للخير بدون وجود الشر. وعلى الرغم من أن الرغبة الجنسية تستوجب اللوم في حد ذاتها فإن الإنسان بدونها عاجز عن الإنجاب والتكاثر: «من واجبنا الاعتراف بجميل أسلافنا فنحن لولا خطيئتهم ما وجدنا».

نقرأ في العهد القديم أن آدم قد «عرف» امرأته. هذا التعبير لا يحل غالباً محل الكلمات المستعملة عادة والمألوفة أكثر منها مثل: «نام» «نام مع» أو «سكن مع». فليست هذه الكلمة كناية للتعبير عن الاتحاد الجسدي السابق لحمل حواء ولإنجابها للطفل. إن كلمة «عرف» ليست رمزاً؟ فهي تعني حقاً ما ترغب في قوله وتدل على انعطاف حاسم في تطور أخلاق الإنسانية: إن «معرفة» المرأة التي اقترن بها الرجل جنسياً تدل على الاعتراف للأم بالطفل الذي حملت به من جراء هذا الاقتران. فإن لم يكن آدم الأب «البيولوجي» الحق لجميع البشر فإنه، على الأقل، أول من «عرف امرأته حواء». وعليه فإنه إذن أول رجل في التاريخ الديني يستحق الاعتراف به أباً.

كانت شعوب ما قبل التاريخ تجهل فكرة «الأب». إذ كانت تعتقد بالاتحاد الولود للسماء والأرض حتى قبل «معرفة» أن تزاوجهم بالذات ينجب حياة جديدة.

في قصة صينية عن الخلق نقرأ: «كان الرجال الأولون كالحيوانات يلبسون الجلود ويقتاتون اللحوم النيئة، وكانوا يجهلون آبائهم على الرغم من معرفتهم لأمهاتهم».

أثبت بعض المبشرين وعدد من ذوي الاختصاص بعلم الإنسان أن بعض الشعوب البدائية، ما زالت حتى يومنا هذا، لا ترى أية علاقة بين العملية الجنسية والحمل بحياة جديدة: يتساكن الرجال مع النساء في قبيلتهم بهدف الحصول على المتعة الخالصة من الاتحاد الجنسي وتشعر النساء بالمتعة الجنسية دون أن يربطن إشباع غرائزهم بحملهن الذي يلي ذلك.

تنحصر القدرة على الإنجاب عند هؤلاء الرجال والنساء، القريبين بعد من الحالة الأصلية، في «طوطمهم» الذي هو كائن أو ظاهرة ترتفع إلى مستوى رمز للخصوبة: من الممكن أن يكون الطوطم حيواناً خطراً أو، على الأغلب، عطوفاً طيباً أو نباتاً أو ظاهرة فوطبيعية نادرة وفريدة أو متكررة. فالمرأة في ذاكرة هذه الأقوام لا تلد نتيجة لاقترانها بالرجل بل الطوطم هو الذي يمنحها ذريتها. وهكذا فإن اعتقادهم هذا يعني أن جميع أفراد القبيلة مدينون بولادتهم للطوطم الذي يتماثلون معه

على نحو غامض، حتى أن الرجال والنساء جميعاً متحدون برابطة فوطبيعية، تتجاوز المحسوس، فيحسبون أن رابطة القربى تجمع فيما بينهم.

إن جهل نتائج عملية النمو البيولوجي الذي يتوالد بواسطته الإنسان والحيوان يعبر عن علاقة الرجل حيال المرأة عند الإنسان الأول: وبما أنه لا يدرك أن الجنين في رحم الأم قد يكون ثمرة لنطفته التي لقحت المرأة خلال الاتحاد الجسدي فإنه يرى في هذا المولود الجديد ابناً للقبيلة وليس ابناً له، ولا يعد نفسه أباً حتى لو تكرر حادث الولادة العجيب مرات عدة خلال العمل الجنسي الممتد على سنوات طوال مع امرأة بعينها. وبقدر ما يندر أن يطأ الرجل امرأة واحدة على نحو دائم ومنتظم بقدر ما هو استثنائي أيضاً اقتران المرأة على الدوام برجل واحد بعينه.

وقد خلص العديد من المتخصصين بعلم الإنسان إلى أن أولى الكائنات الإنسانية لم تعش أزواجاً ازواجاً بل عاش بعضها إلى جانب بعضها الآخر وأنها كانت تتزاوج دون أن تعترضها منغصات ما. إن هذا الاختلاط وهذه اللقاءات بين الجنسين التي كانت تمارس دونما اختيار وفي أي وقت كان وفي كل مرة يخضعون فيها لمطالب الغريزة هي الشكل الأصيل للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة. إن كل امرأة ملك لكل الرجال والعكس صحيح. صحيح أنه يمكن للمرأة أن تثور وتتمرد على واقع امتلاكها بالقوة، لكن موقفها هذا لا ينسجم والممارسات السائدة في القبيلة التي لا تسمح للمرأة أن تجنح وأن تمتنع، دون سبب مقبول، عن الرضوخ لغزو الرجل الذي يشتهيها... فقد كانت الضحية الممتلكة سواء أرادت ذلك أم لم ترد. إن القابلية الجسدية والتكوين التشريحي للأنثى في عالم الحيوان تحيل سفاد الذكر لها أمراً صعباً أو مستحيلاً بتغيير لجلستها في حين أن المرأة قد حرمت هذا الإمكان (القابلية) لتكوينها الجسدي المختلف. إن استلقاء المرأة على ظهرها يجعل فرجها مستباحاً بلا حماية وعليها أن تتقبل العضو المذكر وتشبع رغبات الرجل عندما تستوجب العادة ذلك.

إن فترة الحيض دون غيرها هي التي كانت تحمي المرأة وتصونها. إذ كان الرجل يتراجع أمام هذه الظاهرة الغريبة والثابتة والتي لا يفهم كنهها ويخشاها. وبدا له أن قدرة المرأة على فقدان جزء من دمها أمر يثير القلق بل كان يحسب هذا النزف أمراً فوطبيعي يكبح شهواته ويسيطر عليها.

لا يمكن لـ «إعادة تشكيل» ممارسات الإنسان الأول وسلوكه، بالاعتماد على المقارنة مع التجمعات البدائية، أن يكون معقولاً إلا بقبوله بالفرضية التالية: إن سلوك الإنسان الأول وتعليلاته تتطابق مع الملكات الذهنية المماثلة أو القريبة من القدرات الذهنية التي تسود وتُسيِّر، في أيامنا الراهنة، أفعال وممارسات الرجال والنساء الذين يعيشون في سافانات إفريقيا وغابات الأمازون العذراء، وسُهُب أستراليا الصحراوية حتى لو كان بينهما فارق زمني يقدر بعشرة آلاف سنة. ولكننا إن قبلنا بهذا التشابه بين «المتوحشين» والإنسان الأول فإن هذا التشابه لا يمكن أن يتطابق إلا مع المرحلة الانتقالية للتطور الإنساني، أي مع فسحة قصيرة نسبياً بمقارنتها مع سيرورة

تمتد إلى ملايين السنين، وقد كانت هذه السيرورة غاية في البطء إن نحن فكرنا: أنه على امتداد ٨٠٠ ألف جيل تغطي، على وجه التقريب وفق رأي العلماء، كل مرحلة التطور من القرد إلى الإنسان، في حين أن الأجيال الأربعمائة الأخيرة وحدها تتكون من المزارعين المقيمين.

إن رجال اللاهوت الذين يرون في ممارسات الإنسان وعاداته «إرثاً قادماً من الثدييات» على يقين بأن الإنسان الأول لم يعش في الأصل في قبائل أو في إباحية جنسية مطلقة. لكنهم يرون، على العكس من ذلك، إن الإنسان عاش منفصلاً، واعتصم في أسر منطوية على ذاتها. كما يعتقدون بأن الشامبانزي والغوريلا (الشديدة الشبه بالإنسان والتي تجتمع في جماعات صغيرة تضم ذكراً وأنثى وصغيراً واحداً أو عدة صغار) ليست فقط أساس علاقة الرجل - المرأة خصيصة الحياة الزوجية، بل هي أيضاً أساس الخلية الأسروية. أما عند الفقريات والثدييات العليا الأخرى فإننا لا نجد في الأصل أيضاً إلا شكلين اثنين من أشكال الحياة الجنسية المشتركة: شكلاً يتبع نظام الزوج الواحد وشكلاً يتبع نظام تعدد الزوجات، ولا تَكُفُ هذه القواعد عن سيطرتها على العلاقات الجنسية إلا عندما يتزاوج العديد من الأزواج لتكوين قطيع كبير فتظهر حينئذٍ علاقات جنسية منفتحة أمام الجميع وغير قاصرة على واحد منها دون غيره.

إن هذا التطور لا يرفضه المتخصصون بعلم الإنسان كلياً، ومع ذلك، فهم يوضحون لنا إن الإنسان البدائي الذي لم تتوفر له أسلحة طبيعية ليدافع بها عن نفسه ضد عالم محيط معاد لم يستطع أن يصون نفسه إن هو توزع في أسر معزولة. في حين أنه لو تجمع على شكل قبائل لاستطاع الذود عن نفسه ضد الوحوش الكاسرة ولتمكن من حماية نسائه وأطفاله. فبفضل تكاتف القوى وتوحيدها وبفضل العمل الجماعي استطاع الإنسان القديم البقاء حياً والاصطياد بنجاح وصيانة ما يغنمه. فمن المتعذر المستحيل تخيل أزواج معزولين يتحدون بشكل من أشكال الرابطة الزوجية في كنف قبيلة، حيث يضاجع جميع الرجال جميع النساء ويأخذون على عاتقهم الأطفال والنساء معاً أو تعتني النساء بالرجال والأطفال معاً أن اقتضت الضرورة ذلك. وقد حافظت القبائل البدائية على هذه العادة الوافدة من الأزمان الغابرة.

ولسنا هنا بصدد البت بهذا الرأي أو ذاك. فنحن لا نستطيع إلا أن نؤكد أن مختلف مكتسبات العلوم المقارنة التي ترتكز على أمثلة من مملكة الحيوان ومعاينة القبائل البدائية - لم تقدم لنا نتائج قاطعة حول ممارسات الإنسان القديم وعاداته. كما إن دراسة البقايا الإنسانية، التي كشف عنها الأحيائيون (المتخصصون بعلم المستحاثات) والتي حددت تاريخها الفيزياء الذرية، لم تسمح إلا بافتراضات واقتراحات.

ومع ذلك فقد استطاع ذوو الاختصاص البرهنة على أن مدة التقدم الإنساني، فيما يتعلق بتطور المهارة اليدوية وبعض المبتكرات، تمتد إلى مئات الآلاف من السنين. لكن الأدوات المكتشفة، التي تعود إلى أقدم العصور، لا تدلنا على شروط

حياة الإنسان الذي صنعها إلا بإبهام شديد. ولا نجد، بخاصة، دليلاً واحداً يسمح لنا بتخيل طبيعة العلاقات بين الجنسين.

إن السكاكين والدبابيس ورؤوس النبال أو الرماح التي اكتشفت مطمورة بجانب هياكل الحيوانات العظمية المتحجرة تؤكد، بالطبع، إن الرجال الذين استخدموا هذه الأسلحة كانوا يوفرون لوازم بقائهم بالصيد والقنص. ولكن هل الرجال وحدهم هم الذين يحملون تلك الأسلحة في صراعهم القاسي الذي لا بد منه لضمان استمرارهم في الفترة الجليدية؟ لا شيء يثبت أن المرأة لم تسهم بدورها في الصيد، وليس ثمة ما يؤكد أن الرجال أيضاً قد استعملوا (كما النساء) هذه الإبر المصنوعة من العظام أو القرون أو العاج التي صنعتها الإنسانية بعد بضعة آلاف من السنين لتخيط بواسطتها ثياباً من جلود الحيوانات.

إن أولى الأدوات الخشبية المكتشفة (إذا استثنينا الرماح الخشبية التي تقسى رؤوسها بالنار) هي أوتاد الحفر، أي تلك القطع الخشبية الحادة التي يستخرجون بواسطتها من باطن التربة الجذور أو العساقيل (ساق نبات صالح للأكل)، إضافة إلى القضبان الخشبية التي يحصلون بواسطتها على النار. إن المتخصصين بعلم الإنسان ينسبون هذه الأدوات إلى النساء باعتبارها أدوات يستعملنها يومياً، مما يدعو إلى الافتراض بوجود توزيع للعمل بين الرجل والمرأة: فبينما ينهمك الرجال بتأمين اللحوم تجمع النساء الخضار ويطهونها.

يفرض الشكل الأول هذا من أشكال اقتصاد الصيد والالتقاط (القطاف) نمطاً من أنماط حياة التنقل عبر مناطق واسعة. فإن لم يكفهم ما يصطادونه من الطرائد أو يجنونه من الجذور والعنبيات والفطور - (سواء لأن النباتات لم تحمل الكفاية من الثمار بسبب تقلبات الطقس، أو لأن الحيوانات قد بدلت مكان إقامتها). اضطروا للترحال والتنقل. كان الهدف من هجرتهم السعي للحصول على الطريدة. وهذه الطريدة التي يسعون لاقتناصها تقوم مقام دليل يشجعهم على هجر مناطق غدت غير مضيافة، ليضعوا عصا الترحال في أرض خصيبة ذات شروط مناخية أفضل. في أشهر القيظ كان الرجال والنساء والأطفال يبيتون تحت سقف صخرة مائلة تؤمن لهم الحماية، وفي الشتاء القارس يلجؤون إلى الكهوف بعد أن يجعلوها صالحة للسكن ويفرشوها بالقش وأوراق الشجر والأغصان.

هل كان الرجال في أماكن إقامتهم تلك ينفصلون عن النساء والأطفال أم أنهم كانوا يتمتعون باستراحاتهم الليلية في معاشرات رقيقة حنون؟ إن مراقبتنا لممارسات القبائل البدائية وعاداتها قد أظهرت لنا أن الرجال الذين يعيشون مرحلة اقتصاد القطاف (الالتقاط) والصيد يفضلون النوم بمعزل عن النساء حتى وإن كانت تربطهم بهن علاقات جنسية. ينفرد الرجال مع الرجال والنساء مع النساء. فالعملية الجنسية ألذ وأشهى إن كانت العيون مفتوحة والحواس متيقظة. فالعتمة تحد من شدة اللذة ومتعتها، والقمر مشاهد خطر يخشاه الرجال والنساء معاً.

أثبت العلم، باعتماده على أساس من حسابات فيزياء الأرض الفلكية وتقديراتها، إنه قد مضى تقريباً ٩٨% من الزمن الذي سادت فيه العصور الجليدية لكي يستخدم الإنسان الأول النار ويصنع الأدوات، تلك العصور التي كانت تجتاحها بين الحين والآخر فواصل زمنية حارة نسبياً. إن الحيز الحيوي للثدييات والإنسان، الأقرباء في النوع، قد حددته في كل من أوروبا وآسيا الكتل الثلجية الزاحفة والوافدة من الشمال والمرتفعات الجبلية. إن الكشف عن مخلفات سكانية وأدوات بشرية، يعود تاريخها إلى العصور الجليدية التي قدمت العديد من الأدلة حول تطور الإنسان العاقل، لم تسمح لنا هنا أيضاً إلا بمزيد من الافتراضات والتخمينات حول علاقات النساء والرجال الذين عاشوا طيلة هذه الألوف المؤلفة من السنين.

إن اكتشاف متحجرات إنسان النياندرتال، الذي عاش قرابة مائة ألف سنة في كل من أوروبا وآسيا وأفريقيا، قد قدم أول دليل على وجود اختلاف محتمل في نمط حياة النساء والرجال. وقد أظهر الكشف عن عظام هذا الإنسان من الرئيسات ذي الجبهة المسطحة (وهو بالطبع ليس السلف الحقيقي للإنسان العاقل الذي حل محله أو بالأحرى أباده) أن طول قامة الرجال والبالغة ١.٦٠ أطول من قامة النساء بـ ٦ سم تقريباً. وإن الذراعين والساقين أيضاً أطول وأثخن، والكتفين أوسع. كما أن تعابير الوجه، على ما يبدو، أشد قسوة (في الحدود التي تمكننا من استنتاج ملامح الوجه من خلال شكل الجمجمة). وليست الاختلافات الجسدية في القامة وفي ضخامة الصدر بين الرجل والمرأة الأدلة الوحيدة التي تساعدنا على معرفة عادات حياة إنسان النياندرتال وتقاليده. نحن على علم بأنه كان يعيش في الكهوف وأنه لا يقتل الحيوانات فحسب بل يقتل أقرانه أيضاً. ترى هل كان يأكل مخ أولئك الذين يقتلهم لاعتقاده بأنه لا بد حاصل على قوتهم إن هو فعل ذلك؟

ظهر الإنسان العاقل أبان الحقبة الجليدية الأخيرة (التي انتهت فيما بين الألف الخامس عشر والعاشر قبل الميلاد) أي منذ ٤٠-٥٠ ألف سنة تقريباً، وكان الإنسان العاقل بدوره صياداً: كان يصطاد الرنة (الأيل) والماموث والحصان الوحشي والثور البري والبيزون والدب.. وكان يقيم سكناه تحت صخور مائلة أو في الكهوف والمغاور ولكن لم تكن تلك حاله دائماً: فنحن نعرف أنه كان ينصب الخيام صيفاً ويبني الأكواخ المتواضعة شتاء بل والبيوت الصلبة والمتينة.

تستخدم العظام وحجر الصوان دائماً لصنع الأسلحة والأدوات. لكننا نجد الآن، إضافة إلى ما ذكرناه، أبراً من العظام للخياطة مزودة بثقب، وحجارة من الجيري جوفت على شكل إناء لتستخدم مهراساً لسحق مختلف غلال الحبوب أو قناديل تغذي لهيبها شحوم الحيوانات. بمقدورنا أن نتصور كيف عاش هذا الإنسان الحقيقي، وكيف كان يدرأ عن نفسه برد الشتاء وأي شيء كان يلبس وأين كان يقيم، إن نحن فكرنا بسكان الاسكيمو في البراري الجليدية القطبية في أمريكا الشمالية حيث ما زالت تسود تلك المناطق شروط الحياة القاسية نفسها التي سادت فيما مضى أوروبا الوسطى في العصر الجليدي.

إبر للخياطة وقناديل وأجران وكل أنواع الحلي المصنوعة من المحار والودع، والكهرمان والعاج وأسنان الحيوانات على شكل سلاسل، قلائد وزخارف على الثياب - نحن نجهل إن كانت النساء تنفذ هذه المهام المنزلية المرتبطة بهذه الأشياء أم الرجال. إن إنسان الكهوف الذي كان يزين جدران المغاور برسوم فائقة التعبير وبتصاوير رائعة لم يمثل النساء إلا بوصفها كائنات متميزة بعضوها الجنسي. فهل كانت النساء شريكات للرجال جنسياً فقط في هذه الكهوف حيث يقمن؟ أم أنهن مجرد أمهات لأطفال يستطعن إنجابهم من أي رجل كان؟ أم أنهن قد عرفن «فيما مضى بصفتهن أمهات يملكهن رجل واحد دون غيره؟ إن مشهداً محفوراً على عظم حيوان - قد تم اكتشافه في إحدى المغاور في الغرب من فرنسا - يسمح لنا بأن نفترض أن النساء اللواتي يتقاسمن المأوى مع إنسان الكهوف لسن ملكاً لجميع الرجال. إذ تظهر لنا هذه الصورة، بالفعل، رجلاً يرفع يديه ويتطلع متضرعاً إلى امرأة عارية، موضوع رغبته الجنسية، عائمة فوقه. بمقدورنا أن نستخلص من هذا الرسم إن رجال هذه الحقبة كانوا يتشوقون رغبة في النساء ولا أمل لهم بامتلاكهن لكن من المحتمل أيضاً أن يكون الرجل، الذي رسم هذه المرأة ورسم تنفسه بوضع الضارع المتوسل، غريباً عن القرية التي تنتمي إليها هذه المرأة، بل لعله يأمل، بفضل هذه الصورة السحرية، إن يتمكن من جذبها إليه ومن امتلاكها فهو عن طريقها يستطيع أن يتسلل إلى القبيلة وينتمي إليها.

وغالباً ما وجد في أماكن إقامة صيادي الماموث منحوتات لنساء عاريات تعود بوضوح إلى تلك الحقبة. إن هذه الأعمال المنقوشة على أسنان الحيوانات أو عظامها وهذه التماثيل الصغيرة المكتشفة في أماكن التنقيب الأخرى، المشكلة من صلصال سلس أو المنحوتة من مادة الفخار المسامية، محاكاة للواقع أو تجسيد لرغبة الإنسان الجنسية. إن كل هذه الأعمال لا وجه لها في حين أن الرؤوس محفورة أو معجونة ببساطة على شكل كرات. من الواضح أن هؤلاء الفنانين البدائيين كانوا يكتفون بتمثيل العلامات المميزة للجنس المؤنث وقد يغالون أحياناً في إبرازها: كانوا يجسدون النساء بأثداء ضخمة وأوراك عريضة للغاية وبطون منتفخة وأرداف مفرطة البروز غير شكلها وشوهها الشحم. وقد عد علماء الآثار والانتروبولوجيا المثلث «المثير للخجل» مكان اللذة الذي تحدده وترسم خطوطه حنية البطن وأخدودا الأربيتين[1] رمزاً سحرياً محتملاً للمرأة التي يهفو إليها ويحلم بها، أو رمزاً لامرأة استسلمت له فعلاً. ففي مخيلة هؤلاء الرجال الذين أبدعوا هذه الأعمال التشكيلية تحيا هؤلاء النسوة اللواتي شُكِّلن على هذا النحو وكأنهن نساء حقيقيات من لحم ودم. فغدت الصورة واقعاً وعلينا ألا نبتسم ساخرين عندما يعرض علينا المتخصصون بما قبل التاريخ هذه التماثيل بوصفها صورة لفينوس: إن رجل العصر الحجري كان يرى فيها فينوسه.

١- الاربية: أصل الفخذ مما يلي البطن.

هل كان لمقدرة الإنسان البدائي على صنع أشكال تتطابق ومخيلته تأثير في مفاهيم الرجال الدينية الذين حلوا بعده؟ وهل يمكننا، على هذا الأساس، تفسير إيماننا بالعناية الإلهية الفائقة القدرة التي شكلت الإنسان الأول من الطين وقد نفخت فيه من روحها لتهبه الحياة، مثلما عاشت أيضاً بطريقة سحرية هذه النساء المجبولات من الطين بأيد ماهرة، والقادرات على إثارة رغبات أولئك الذين يتأملونهن على الرغم من عدم وجودهن الفعلي؟

إن نقوش النساء العاريات ورسومها على الصخور، والتماثيل الصغيرة المزودة بخصائص جنسية أنثوية بالغة الضخامة لتقدم لنا أولى الأدلة الموضوعية حول علاقات الرجال والنساء في المجتمع البدائي، إذ نستخلص منها أن الرجال قبيل انتهاء الحقبة الجليدية كانوا يغازلون النساء كما «تغازل» أغلبية الذكور في مملكة الحيوان إناثها. ومما يعزز هذا الافتراض أننا لم نجد، بالفعل، في حقول التنقيبات رموزاً قضيبية يكون لها في مخيلة النساء ما لأشكال جنس الإناث من قيمة عند الرجال. فإن كانت النساء يرغبن في نقل ما للذكورة من خصائص وسمات فبمقدورهن القيام بذلك بأن يجبلن ويشكلن بالعجائن الطينية المتوفرة الأشكال والمواضيع التي تنسجم ورغباتهن. فالنساء إذن هم اللواتي يهبن وهن اللواتي يستسلمن. في حين أن الرجال، على العكس من ذلك، يأخذون، وعليهم أن يجهدوا لينالوا حظوة النساء وأن يتحلوا باللطف والطيبة إن هم أرادوا كسب ودهن، فهم يحصلون على المتعة الجسدية وكأنها مغنم أو ثمرة لا يفوزون بها إلا بالقنص والصيد. ومع ذلك علينا أن نذكر أنهم كانوا يربطون، رمزياً، ما بين العملية الجنسية والصيد وأنهم كانوا يمارسون الجنس قبل خروجهم للصيد بوصفه فعلاً سحرياً يعود عليهم بالربح الوفير إن هم مارسوه قبيل سعيهم وراء الطريدة.

ولا نجانب الصواب في استنتاجنا، بعد أن كشفت معاول علماء الإنسان القديم أشكالاً قضيبية في بعض حقول التنقيب التي تعود إلى نهاية العصر الحجري، أن هذه الأعمال أيضاً من صنع الرجال لا النساء لكننا نجهل ما إذا كانت مظهراً من مظاهر متعة العيش وأن القضيب في هذه الفترة، يمثل رمز القدرة المنجبة، أو أن نرى في ذلك، كما يؤكد بعض الاختصاصين، موضوعاً غنياً بصوره واستعاراته لا تربطه أيّ علاقة بالسلوك الجنسي بل يلعب دوراً عدوانياً ومهدداً. ونحن نعرف أن من الشائع عند القردة الذكور، التي تحرس حدود ممتلكات تجمعها، إن تحول دون دخول أي

عنصر أجنبي إلى ممتلكاتها بالتلويح بقضيبيها المنتصب دليل تهديد ووعيد. وأخيراً فإننا لا نعرف إن كان من المحتمل أن يمثل القضيب دليل سيطرة وتفوق اجتماعي داخل الجماعة.

إننا نجهل تماماً ولا نستطيع إلا التكهن بالدوافع التي جبلت هذه الوفرة الوفيرة من التماثيل الصغيرة لـ «فينوس»، لتشكل بوضوح صارخ رموزاً ثنائية الجنس: القسم العلوي يستنتسخ شكل المرأة العلوي فقط، بينما يمثل القسم السفلي، بردفيه المنتفخين كما الكرتين و «الساقين» الملتحمتين كما المغزل، عضو الذكر الجنسي. إن هذه الكائنات الثنائية الجنس، التي حدثنا عنها بيروسوس في معرض حديثه عن السومريين، نعود، في الواقع، إلى رجال العصر الحجري في الحقبة الجليدية. كما يعتقد بعض الاختصاصيين، وربما كانوا على حق تماماً، أن هذه الفينوسات - القضب Venus-Phallus الثنائية الجنس، كانت تستخدم للافتضاض الشعائري لبكارة الفتيات البالغات.

إن تماثيل فينوس والنقوش على العظام، التي تبرز المرأة المشتهاة وأعضاء ذكورة الرجل، والتماثيل الثنائية الجنس المتميزة، تعكس لنا، على أي حال، ما يلي: إن هؤلاء الرجال البدائيين قد تأثروا بالمتعة الجنسية أبلغ التأثر ورأوا فيها إحدى ألذ ما في الحياة من مباهج ومتع، فسحروا بها وسيطرت، كلياً، على عقولهم، كما تبرز لنا هذه الوفرة في تمثيلات النساء مدى انجذاب الرجال إلى المرأة واستقطابها لأفكارهم (ومن ضمن ذلك، بالطبع، طقوسهم وشعائرهم).

هل كانت المتعة الجنسية، المجسدة في المرأة، أول معبود يتوسل إليه الرجل البدائي ويبتهل؟ أم أنهم كانوا يتعبدون الخصوبة، إذ كانت المرأة نموذجاً لها لحبلها كما الأرض في حملها ونماء نباتاتها؟ أم أن هذه الأشكال الأنثوية تتجاوز في تجسيدها خصوبة الأمهات؟ أو لم تكن هذه النساء إلهات للحيوانات التي تجدد كل عام تقدمتها لصيد الرجال وطرائدهم؟ أم أن الموضوع يتعلق بالأم الكبرى، الأم البدء أصل الأحياء كافة وسلف القبيلة؟ أو ليست هذه المرأة، التي صنعها ونحتها الرجال، تجسيداً مسبقاً لرموز إلهية خلقها الرجال لاحقاً؟

إن كافة المحاولات العلمية للكشف عن أصل العقائد الإنسانية قد حملت على الاعتقاد بأن الانطباعات السحرية، التي بعثتها، في الإنسان، الظواهر الطبيعية لدى معاينته لها، قد أدت إلى ظهور بعض الأفكار المحددة في وجدانه. وقد غدت مراقبة الطبيعة في أشكالها الأساسية واختبار الحياة اليومية منهلاً للعقائد. إن الحيوانات والنباتات والأشجار والشمس والقمر والنجوم والسواقي والأنهار والجبال والسحب

والضباب، كل ما يراه الإنسان وكل ما يؤثر فيه ولا يراه، قد دفعه إلى التعجب والعجب وإلى العبادة والتعبد بشعور المهابة والحاجة إلى الحماية.

قال الشاعر اللاتيني لوكريس: إن القلق[1] «أم الآلهة».

بيد أن هذا القلق لم يكن، على الأرجح، قلقاً على الحياة بقدر ما كان قلقاً من الموت أيضاً، إذ كان لا بد من أن يدرك الإنسان الخوف والهلع بعد أن عاين ولَمَسَ لَمْسَ الواقع أن الأموات لا يختفون إلى الأبد حتى ولو لم يعيشوا، البتة، جسدياً، فالموات يستمرون في العيش في أذهان - الأحياء أي في ذاكرتهم، لأن كل ما يدركه الإنسان (أو الحيوان) بحواسه يختزنه في دماغه، والذي كان موجوداً ذات مرة، الذاكرة تحتجزه والحلم يمنحه الحياة. لأن ما كان (موجوداً) لم يمت ولن يموت بالنسبة لعيون الفكر. إن ظهور أشخاص قد توفوا جسدياً كان يدفع بالإنسان البدائي إلى أن يلوذ بالفرار هلعاً أو إلى تبجيل الأموات، سواء حدث هذا الظهور في الحلم أو في حالات اليقظة بفعل وهم الحواس وخداعها، فقد يكون هؤلاء الموتى أشباحاً تملأ القلوب خوفاً وهلعاً، فمن الملائم أن يسعى الإنسان إلى تهدئتها لكي يمنعها من التسبب بالمصائب، وقد تكون أرواحاً خيرة ما زالت أعمالها الميمونة تفعل فعلها بعد رحيلهم. لذلك فإننا نرى الأموات يُهجرون، تارة، ليخلوا بأنفسهم وينعموا بسلام ما بعد الموت. ويقوموا بأود أنفسهم، ونراهم، تارة أخرى، وقد دُفنوا مع كل ما كانوا يستخدمونه عادة دون نسيان أي شيء أو نقصانه. وبذلك يكون الأموات قد دُفنوا مع أدواتهم الضرورية التي يحتاجون إليها إن هم عادوا أدراجهم إلى المكان الذي كانوا قد ماتوا فيه. كان الإنسان الأول يزود أمواته بمؤونة الطريق للسفر إلى عالم المجهول الذي شرعوا بارتياده. وقد رأينا إنسان النياندرتال يسلك السلوك نفسه حيال أمواته الذين كان يواريهم التراب بتكريم خاص.

إن الفزع من العائدين والخوف من الفوطبيعي ومن الذي لا يدرك ومن كل ما يبدو حاضراً فعلاً دون التمكن من لمسه، قد أدت جميعها إلى ولادة عبادة الموتى التي كان لها تأثير حاسم في العقائد البشرية وفي عاداتهم وممارساتهم وأخلاقهم. إن الأرماس (اللحود) والأنصاب وكتل الحجارة المنتصبة نحو السماء وأكداس الحجارة الدائرية والمسلات والشواهد الثقيلة المكدسة كما الموائد. كل هذه الأوابد المنتشرة في أكثر بقاع الأرض تنوعاً، في إنكلترا كما في آسيا الوسطى، إن هي إلا أطلال قبور أو مذابح أو أماكن لممارسة الطقوس، لكننا في الواقع، نفتقد دليلاً على ما يمكن أن يساعدنا في معرفة العقيدة أو الطقوس التي انصرف إليها هؤلاء الرجال المجتمعون في هذه الأماكن.

كانت الأرض بالنسبة للأغلبية العظمى من الشعوب البدائية الأم الكبرى، ولعلها تلك التي صادفناها في هذه التماثيل الصغيرة ذات الأشكال البارزة التي تعود

١- القلق في اللاتينية والفرنسية اسم - مؤنث - المترجم.

إلى العصر الحجري، كما كانت الشمس القوة المولدة لكل مظاهر الحياة على الأرض، أما السماء، التي تهب المطر وتحتجزه، فقد كانت مكان إقامة الآلهة جمعاء، بل أن النجوم نفسها كانت كائنات لها نفوذ فوطبيعي. والنار لم تفقد سحرها على الرغم من استئناس الإنسان لها فكانت ابناً للشمس، هذه الكرة المضيئة التي تشرق كل صباح فتهب الدفء والضوء لتترك، من ثم، مكانها للقمر الذي يكون هلالاً تارة وبدراً تارة أخرى. وقد تخيل الإنسان القديم القمر فاتناً يغوي النساء ويضاجعهن أثناء ليالي فترة حيضهن. كما أن النساء أنفسهن يتمنعن آنئذ عن كل علاقة جنسية. كانت النساء يحترمن القمر ويكرمنه بصفته إلهة تدافع عنهن وتحميهن من الرجال في أوقات منتظمة ومحددة من كل شهر.

وكانت هذه العقيدة، التي يدين، وفقها، جميع الرجال والنساء بحياتهم إلى قدرة غامضة فوطبيعية، تشكل المبدأ الأساسي لتجمعهم. إلا أننا نجد إلى جانب الطوطم، محط الاحترام والتبجيل، الذي تورثه الأم لأولادها والذي يبقى حياً في ذاكرة الأجيال المتعاقبة كما الروح الراعية، قوى الطبيعية التي تؤثر في الإنسان في كل زمان ومكان في الليل كما في النهار، والتي تبعث على الفرح أو تزرع الرعب والمصائب. وفي سبيل فهمها وكسب ودها «أنسن» الإنسان قوى الخير والشر هذه وحباها بمزايا إنسانية متطورة فوطبيعية: وارتقى بقوى الطبيعة إلى مصاف الآلهة. إن الممارسات الجماعية داخل القبيلة، هذه الممارسات المتصلة في جوهرها بعادات الحياة عند قطيع اللبونات قد أصابها، من جراء ذلك، تحول حاسم. فلم تعد أنماط السلوك وعادات الإنسان منذئذٍ طوعاً لارتكاسات عقلية أو غريزية وفورية لمعطيات طبيعية ملموسة للعالم المحيط. فمن الآن وصاعداً أخذ الإنسان في اعتباره القوى فوطبيعية وخشي فقدانها. إذ اعتقد أن سعادة العائلة أو القبيلة وسوء طالعهما وأن الرفاه أو البلية منوطة جميعها بحظوة القوى الإلهية أو فقدان حظوتها.

إن العودة من تجارب مشؤومة أو ميمونة علمت الرجال والنساء كيفية التصرف للفوز بحظوة الآلهة وكيفية تجنب سخطها وغيظها. وعلى تلك الخبرات بنى الإنسان عاداته وتقاليده وممارساته. وكما هو الحال عند الذئاب، إذ يقود القطيع واحد منهم، كذلك الحال في القبيلة إذ يفوز أحد الرجال بامتياز قيادته للآخرين. فليس عليه أن يكون أقواهم وأفطنهم في الصيد والقتال فحسب، بل عليه أيضاً أن يعرف تماماً المعرفة أماكن الإقامة، وأن يبدي الرأي السديد في حسن الموقع وصلاحيته، وعليه أن يسعى جهده كيلاً يبتعد الرجال والنساء عن الطريق ويضلوا... وعليه ألا يكشف عن مكانه دونما جدوى، كيلا يتعرض ويعرض من معه لهجوم الحيوانات المفترسة وإغارة القبائل الغريبة، وعليه أن يجمع، بصفته القائد، خاصته ليلتمس عون الآلهة التي ابتكروها أو يدرأ أذاها. إنه الناطق بلسان حال قبيلته أمام الآلهة يُسمعها ويستمع إليها.

وعلى مقدار هذه الوفرة من المسؤوليات التي يضطلع بها الزعيم يتمتع بعلو المقام الذي لا ينكره رجال القبيلة الآخرون إذ كان عليه أن يبرهن على جدارته وتفوقه

قبل أن يفوز بمكانته المتميزة التي هو أهل للدفاع عنها، فيستخدم قوته ويمارس سلطته في القبيلة على الرجال والنساء معاً. وباعتباره الأقوى بين الرجال والمدافع الذي يذود عن أطفالهن تجهد النساء ويتعمدن الفوز برفقته واكتساب مودته، فيستسلمن لمداعبته بسرور بالغ ليغنمن فائدة المتعة التي يهبنها له. فليست إذن، والحال هذه مآثر زعيم القبيلة الجنسية هي التي تدفع النساء إلى تفضيله على غيره من الرجال، ومع ذلك لم تفكر أية امرأة منهن في رفض مضاجعة رجال آخرين. بيد أن الامتيازات التي يمكن أن تحصل عليها هي وأطفالها كانت تدفع بها تلقائياً، إلى السعي للحصول على رعاية أوسع الرجال نفوذاً وعلى حظوتهم فكانت النساء، في هذا المجتمع الخالي من الأب، يتبنين، حيال أطفالهن، الموقف نفسه الذي يتبناه زعيم القبيلة حيال أفرادها. إذ يرتبط الصبية والبنات بالأمهات اللواتي ولدنهم وأرضعنهم وربينهم إلى أن يستطيعوا سد احتياجاتهم بأنفسهم، فالأم ترضع أطفالها كما توزع عليهم ما حصلت عليه من نبات وخضار. وتقتطع نصيباً مما أصابها من غنائم الصيد التي جلبها الرجال إليها لتوزعه على أولادها. وهكذا نرى أن تبعية الأطفال ودفء الحماية التي يتمتعون بها قد خلقت أولى الأسر التي لا يُقبل الرجل فيها إلا بعد انضوائه في دائرة مغلقة تتألف من الأمهات والأبناء.

وقد حد تعاظم نفوذ الأمهات من الإباحية الجنسية كما أن أشد القرابات قرباً لا تقف عائقاً دون الاتحاد الجنسي، - (بلين الأم وأبنائها مثلاً أو بين الأخوة والأخوات) -فما أن يشعر الإنسان بغرائزه وبميوله الفطرية حتى يسارع إلى إروائها دونما أي عائق، لكن الرجل الذي لا ينتسب إلى أسرة رغب في مضاجعة الأم فيها أو إحدى بناتها، رغماً عنهما، سوف يقف ضده الأبناء والأخوة المراهقون أو البالغون الذين يقاومون بعنف وغيرة كل دخيل غير مرغوب فيه في أسرتهم.

ويندرج الأحفاد وذراريهم أيضاً في قائمة التجمع العائلي للأطفال المولودين من إحدى الأمهات. في البدء اتحدت الجماعات العائلية، التي توسعت على هذا النحو، على شكل عشائر تعيش في وسط القبيلة وتبجل الطوطم نفسه، ثم شكلت هذه العشائر قبائل مستقلة غدت بدورها طوائف و «سلالات» وعندما تنفصل العائلات عن بعضها بود وسلام تحافظ على أواصر الصداقة فيما بينها وتتبادل الرجال والنساء، كما هو شائع، حالياً، في أواسط الشعوب البدائية: تقترن مجموعة من الرجال، تحت شكل من أشكال «الزواج» بنساء ينتمين إلى جماعة أخرى، فإذا ما تم الاتفاق يضاجع كل رجل، بانتظام، كل امرأة من المجموعة الأخرى، وبذلك يكونون قد نفذوا بنود «الاتفاق» المعتمد من الطرفين.

لا يعني رجحان مكانة المرأة في أولى المجتمعات الإنسانية أن لها حق القيادة على أفراد العائلة الذكور: صحيح أننا لا نستطيع إنكار ما للمرأة من نفوذ لكن الرجال لا يخضعون للأمهات، فهم متكافئون. وتقر الأمهات باستقلالية الرجال في الصيد وفي التصدي لغارات القبائل المعادية. إن عادات الطفولة تطبع الرجال على احترام

الأم وعلى التعلق بها حتى في الوقت الذي لم تستطع فيه، إطلاقاً، ممارسة سلطان أمومتها الحنون.

ويرى علماء الأجناس البشرية والمتخصصون بعلم الإنسان (الانتروبولوجيون) سيادة مرحلتين متتاليتين على أولى الأزمان الإنسانية: الإباحية الجنسية أولاً والأمومية ثانياً. بيد أن المتخصصين في السلوك يرون عكس ذلك. إن الكائن الإنساني لم يعش، منذ الفترة النياندرتالية، إباحية جنسية غير متمايزة، وإنما عاش أزواجاً أزواجاً.. وهم يعززون نظريتهم تلك موضحين: إن الجهد الجماعي الذي لا يمكن الاستغناء عنه لاستمرار النوع والذي ينحصر في طرد الحيوانات الخطيرة، يحول دون، بل، لا يسمح بوقوع أي أشجار أو تنافس بين الرجال من أجل النساء. وسواء أخذنا بهذه الفرضية أو تلك: ففي المضارب أو المغاور، حيث تلد النساء أطفالهن وينشئنهم في الوقت الذي يكون فيه الرجال غائبين على الدوام، يطاردون ويقنصون، أحدثت، شيئاً فشيئاً، العائلة المتحدة حول الأم ومعها حقها الأمومي. وأياً كانت الكيفية التي تشكلت بواسطتها العادات والممارسات فإن الرغبة في الحياة وفي ولادة حيوات جديدة هي التي دفعت بالرجل، ليس فقط إلى الصمود وتأكيد الذات في عالم معاد، وإنما دفعته أيضاً إلى الهيمنة، المتعاظمة دوماً، على العالم المحيط وتغييره بما ينسجم وتصوراته.

منذ حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد أحدثت بعض القبائل الأسروية، التي كانت تعيش، حينئذٍ، على القطاف والتقاط ما تجود به الطبيعة من ثمر ونبات وعلى الطرائد وصيد الأسماك، مدناً قروية، واجروا على المحيط تغييرات اصطناعية. واستقر الرجال مزارعين ليس فوق النجاد المرتفعة أو في السهول فحسب، بل وعلى ضفاف البحيرات المروية البليلة والغنية بالأسماك أيضاً، حيث أقاموا سكناهم على المواتد (مجموع أوتاد).

إننا نجهل متى تعلم الإنسان أن بذر البذور يخصب التربة كما أننا لا نعرف أيضاً متى بدأ بتدجين الحيوانات وتربيتها، تلك التي كان من عادته اصطيادها. بل كيف عرف حسبان الفترة الزمنية ما بين السفاد وولادة الحيوانات التي أصبحت، من الآن فصاعداً، حيوانات أهلية؟ وقد أثبت اكتشاف الهياكل العظمية التي يعود تاريخها إلى الألف الثامن ق.م أن الكلاب كانت آنذاك رفيقاً أليفاً لذاك الإنسان الذي غدا حضرياً، وبعد هذه الفترة بنحو ألفي سنة شرع إنسان ما قبل التاريخ في تربية الماعز والخراف والخنازير والأبقار ومن ثم استخدم الحصان. وعليه فقد كان الإنسان القديم إما مزارعاً وإما مربياً للماشية وراعياً لها تبعاً للمنطقة التي يقيم بها. وما دام هذا الإنسان غير ملزم بمطاردة الحيوانات والسعي بحثاً عن الطريدة وعن قوته من النباتات، لتأمين احتياجاته الغذائية بل أصبح بمقدوره الحصول على لوازم الحياة وضروراتها بالعمل في الأرض وبتربية الماشية، فإن نمط حياته قد تميز كلياً عن نمط حياة الرئيسات الأخرى الرهينة أبداً بما تجود به الطبيعة. وغدا الإنسان مستقلاً وسيد نفسه بتغييره للعالم من حوله.

وببلوغ الإنسان هذه المرتبة من النمو والتطور شرع في تبني عادات متميزة وهي، حتى يومنا هذا، من خصائص الجنس البشري وحده. ومع إقامة الإنسان في المكان واستقراره فيه طرأ تبدل في توزيع العمل بين الجنسين وتبدلت معه العلاقات بين الرجل والمرأة. فالنساء اللواتي كن حتى ذلك الحين يعتنين ويربين أطفالهن في المغاور والكهوف قد انتقلن للسكن، من الآن فصاعداً، في أكواخ ومنازل شيدت على مقربة من حقول خصبة أو تحت مضارب تحف بها المراعي من كل جانب. أما الرجال الذين كشفوا النقاب عن أسرار الدور الذي يلعبونه في الانسال فقد (عرفوا) النساء اللواتي كن قد اقترن بهم في حيز منعزل داخل سكناهم واللواتي كن قد أنجبن أطفالاً. فابرزوا حقوقهم بوصفهم آباء وطالبوا بملكيتهم، ليس لما أنجبوه من أبناء فحسب، بل ولأمهات هؤلاء الأولاد أيضاً.

وقد غدت النساء، اللواتي شاركن الرجل سريره وولدن له ذرية هو بأمس الحاجة إليها لتشارك في أشغاله المتنامية على الدوام، من ممتلكاته الثمينة كالحقل الذي يزرعه ويعتني به والماشية التي يُربيها. وشاء الرجال أن يضموا النساء إليهم ليعتنوا بهن. فأوجدوا (إن أخذنا بفرضية الانتروبولوجيين الذين يرفضون أن يروا في الزواج أرثاً قديماً ورثه الإنسان من اللبونات) مؤسسة الزواج وأخضعوا النساء إلى «الحق الأبوي» وأقاموا هذا الحق على الأسس نفسها التي قام عليها حق الملكية، وعدّوه حقاً لازماً لا يمكن الاستغناء عنه لحفظ ممتلكاتهم وحمايتها بسلامة تامة.

وعد الزواج في جميع الحضارات الإنسانية الأساس الطبيعي لحياة الرجل - المرأة المشتركة وقد فرضته الآلهة... وتختلف بالطبع، أشكال الزواج باختلاف العهود والمناطق وتبعاً للمفاهيم الأخلاقية أو الشروط الاقتصادية التي تهيمن على مؤسسته كما هو الحال في القانون الأساسي لحق الملكية.

ويرى بعض المتخصصين بعلم الجنس أن الزواج لا يرتكز، عموماً، على مبادئ عشقية وجنسية. إن حرية اختيار الشريك الجنسي بملء الإرادة ودونما إكراه لم يتخل عنها أي من الطرفين عن رضا. وما دام الزواج لم يأت ليفرض قيوده وحواجزه، إذ خضع الرجال والنساء لغرائزهم واستطاعوا إشباع رغباتهم في التنويع والاختيار، فعلينا، والحال هذه، أن نعدّه فطرياً.

وهنا لا بد من أن نتساءل: هل بدا للإنسان البدائي أن غريزة التملك والرغبة في الاحتفاظ وزيادة ممتلكاته لضمان وجود أشد رسوخاً وثباتاً تفوق في أهميتها الغريزة الجنسية بمباهجها وتمام إرواء غليلها؟

لا يرتهن دوام الحياة المشتركة واستمرارها بين رجل ما قبل التاريخ والمرأة التي «عرفها» وامتلكها بالزواج بها، بالمتعة الجنسية التي يتبادلانها وإنما بولودية الزوجة، فالرجل يعقد زواجه، قبل أي شيء آخر، على سبيل التجربة ليتأكد من أن المرأة شغيلة محبة للعمل، وأن بمقدورها منحه أولاداً هو بأمس الحاجة إليهم لحفظ أملاكه ونمائها.

وليس بضار ولا بشائن لكليهما إن انتهى الزواج بالفشل وأخفق. فبمستطاع المرأة كما الرجل، أن تجرب حظها في زواج اختباري آخر. صحيح أن الزواج يجرد النساء من حقوقهن لكنه لا يحرمهن من مكانتهن. إنهن أيد عاملة لا يمكن الاستغناء عنها وأجسادهن الولودة تنجب أيدياً عاملة أخرى جديدة. فالنساء والحال هذه، تمثل «رأس مال» وعلى طالب الزواج الذي يود امتلاكه أن يدفع بالمقابل ويهب الهبات والعطايا أو المخصصات العينية. وتغدو الفتيات البالغات، القادرات على الإنجاب، سلعة لا بد للزوج من أن يشتريها من أبيها. لكن الرجل الذي دفع ثمن الشراء يأمل ألا يكون مخدوعاً بمزايا السلعة التي اقتناها، فهو يرغب، قبل أي شيء آخر، في التثبت من أنه لم يؤوِ تحت سقف بيته، في الوقت الذي دخلت إليه هذه الزوجة، ذرية رجل آخر. ولهذا السبب كانت عفة البنت، قبل ليلة الزفاف وفي مناطق عدة، شرطاً مساعداً على إبرام عقد الزواج. بيد أن هذا الشرط لم يكن مطلوباً ولازماً في كل مكان، فهو يفقد أوليته عندما تكون لليد العاملة القادمة، ثمرة اقتران سابق، أهمية تفوق بكثير بكارة المرأة وعفافها.

إن للبكارة، على الأرجح، أهمية أعظم عند أب هؤلاء الفتيات منها عند من يرغب في الاقتران بهن. وبصريح العبارة: إن نقاء السلعة التي يجب أن «تقدم للرجل» يزيد في قيمتها التجارية. إن العفاف الذي فرض على الفتاة قبل الزواج دليل على إخلاصها ووفائها في حياتها الزوجية القادمة. وقد شاعت العادة عند العديد من الشعوب، لمنع الفتيات من فقدان بكارتهن، أن يحتجزن ويعزلن عن الرجال الذين يتسببون «بفقدان السلعة لقيمتها». مما دفع المجتمع أيضاً إلى تلقينهن أصول الخفر والاحتشام وضرورة ستر أعضائهن الجنسية أو الأعضاء «الفاضحة»، كيلا تغوي رؤيتها، على سبيل المثال، الرجال في العائلة وتدفعهم إلى الخطيئة، واقتدى الرجال بالنساء وستروا بدورهم أعضائهم التناسلية.

وقد عدت خيانة المرأة جريمة.. بيد أن هذه الجريمة ليست ضد نظام الأخلاق بل هي ضد حق من حقوق ملكية الزوج. وبالمقابل فقد استأثر الزوج بحق «إعارة» امرأته إلى أحد ضيوفه ما دام من حقه التصرف بجسدها وروحها. واستمر حق الزوج هذا فترة طويلة حتى إلى ما بعد انتقال الإنسانية من مرحلة ما قبل التاريخ إلى التاريخ.

إن مختلف مراحل هذه التحولات في العلاقات المتبادلة بين الرجال والنساء تعود إلى أزمان ما قبل التاريخ. ومع ذلك فإن علماء الاجتماع يرون فيها «هزيمة تاريخية كبرى للجنس الأنثوي» ما فتئت النساء يقاومنها منذ ألوف السنين. ولم تناضل النساء ضد مؤسسة الزواج كما ناضلن ضد تجريدهن الطاغي من حقوقهن لصالح الرجال وضد «ازدواجية الأخلاق» التي جاءت محصلة لذلك. فتحتم عليهن أن يبقين ضحاياه ما بقيت قوانين الأخلاق هذه من وضع الرجال لا النساء وقد صدرت باسم ديانة يقوم بإدارتها الرجال بوصفهم كهنة الآلهة ووكلائها.

وهكذا سنت القوانين وهكذا انتهكت وهكذا أهملت، ومع ذلك فقد استمر شيء ما كان حاضراً منذ البدء: إنه حب الحياة.

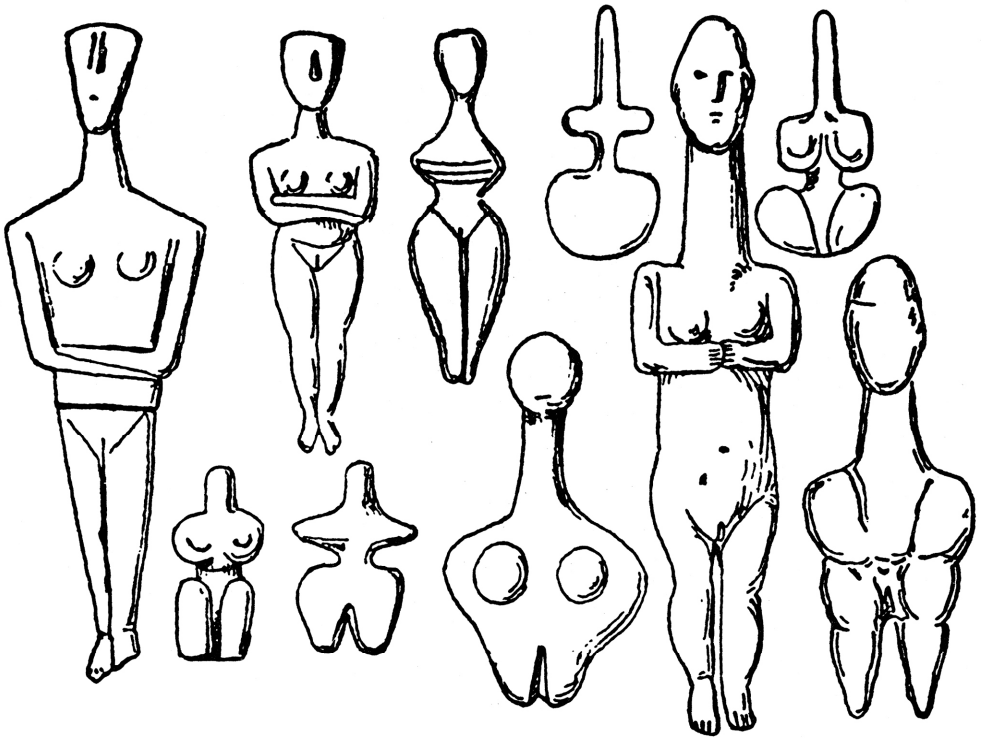

رسوم بيانية لتماثيل ونقوش تمثل المرأة،
اكتشفت حديثاً في جزيرة كريت.

فينوسات الخصب

(1) فينوس وليندورف Willendorf.

(2) فينوس مينتون.

(3) فينوس ليسبوج (من العاج).

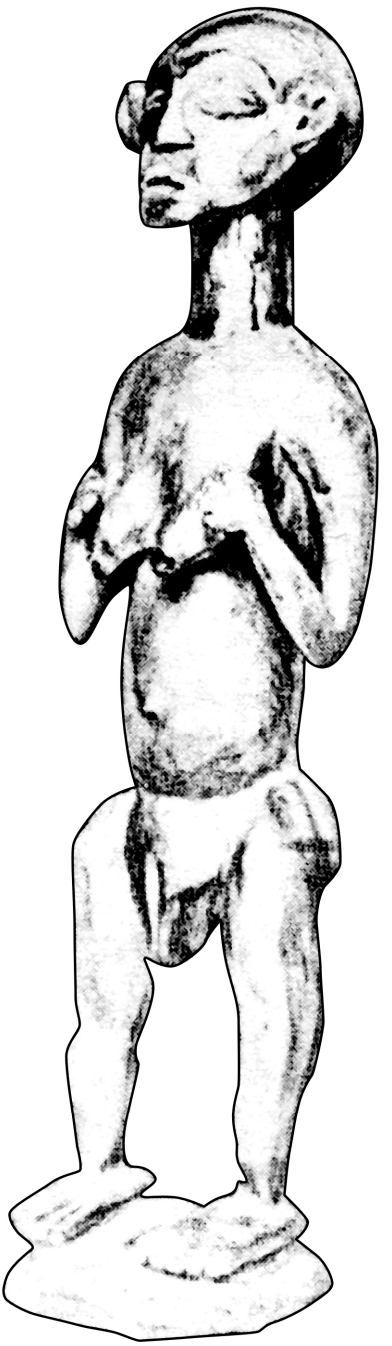

تمثال صغير من وادي النيل إلى يرقى ما قبل

التاريخ (قبل الأسرة الفرعونية الأولى)

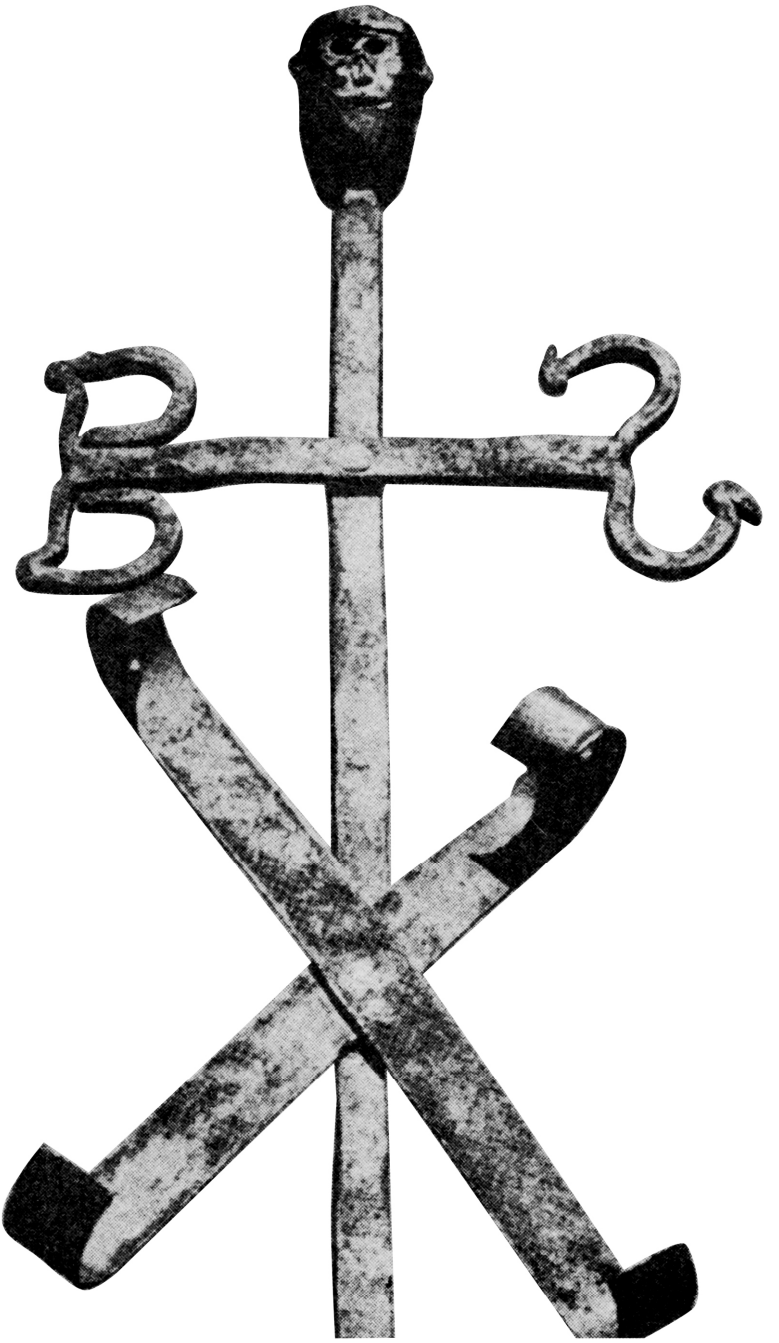

طوطم بارون- سامدي، إله الموت..

وقد كانت طقوس عبادته تقام في المقابر.